

أَحْلَامُ مُغْتَرِبٍ
رواية
أحمد المحمدي

أَحْلَامُ مُغْتَرِبٍ



رواية

لأحمد المحمدي



... إلى من أخذتني كلماته وفلسفته إلى أعماقي فأخرجت ما بها من طاقة ورغبة وتساؤلات سرعان ما اتخذت لنفسها هذا الثوب الأدبي الذي اتخذه هو من قبلي، إلى روائيّ المفضل، إلى المصري المنحوتة بقسماته وأحرفه حارات مصر، إلى عم نجيب.

... وإلى كل واقع بحياتي ذكرته ولو بإماءة في رواياتي، إلى كل شخصية حقيقية ذكرتها هنا باسمها أو بوصفها، بأكملها أو بموقف منها، إلى أصدقائي، إلى أسرتي، إلى كل من يقرأ كلماتي فيرى نفسه.



مقدمة

.. تطوف في عقولنا أحلام، نستمدها من بيئة أو موقف أو شخص، ولكن تلك الأحلام كالنخل لا يهمه الأرض التي خرج منها، بل كل ما يأبه به هو أن يتمكن من مصافحة سماء الواقع، متحولاً من بذرة مدفونة في باطن الأرض لا يدري عنها أحد إلى نخلة تتعلق بها الأنظار.

.. والحالم كالأم يجد أنه مسؤول عن رضيعه، ليس له أن يستسلم لليأس تاركاً ذاك الرضيع يتضور جوعاً، وتلك الأم تعلم أن رضيعها لن يصبح جاهزاً ليظهر للمجتمع دون أن يمرض مرة أو أكثر، كذلك الحالم لابد أن يصيب حلمه بعض فيروسات الفشل، ولكنه لابد أن يوقن أنه ثمة علاج لذلك المرض.

.. وبعض الحالمين تدفعهم أمراض أحلامهم إلى الغربة بحثاً عن دواء، مضيفة الحياة لهم مرضاً يدعى الشوق، ولكن ذاك المغترب لا يجب أن يلهيه مرضه عن

علاج حلمه، فالصائم لا يجب أن ينسيه جوعه صيامه، لا يجب أن يضحي بصيامه من أجل شوق معدته إلى الطعام.

... لأن الأحلام هي ما تدفعنا إلى العمل، وتشعرنا بقيمة هذه السنوات من عمرنا، لا يجب أن تفرغ عقولنا لحظة من حلم.

... والإنسان الطامع بفطرته لا يجب أن يبخل على نفسه، ويقتصد في أحلامه، بل يجب أن يكون كالرياح كلما وصلت وجهتها، صنعت لها وجهة جديدة.

(١)

... في قرية من قرى محافظة الدقهلية النائية، وفي مدرسة ابتدائية، يجلس طفل في الثامنة من عمره في زاوية بأقصى الفصل، كان يبدو من وجهه المستقيم الخالي من تعرجات الابتسام ومن صمته الدائم أنه يخفي بداخل قلبه الصغير الكثير، فكان هذا الصبي على الرغم من كونه وحيد والديه ينال منهما من القسوة التي يجلبها خوفهما عليه ما يحمله أحياناً على الظن أنهما يكرهانه.

... كان أحمد قد وهب من صغر الجسد ما لم يناسب كبر عقله، فكان نحيفاً ولم يكن نصيبه من الطول

بالقدر الذي يستطيع الاعتماد عليه، ولكنه قد وهب من الفطنة ما جعله وحيداً، فإضافة إلى وحدته في غرفته طيلة الوقت كان وحيداً كذلك في مدرسته، فكان يجلس في مقعده ينظر إلى زملائه بعين حادقة ساحرة تستطيع أن تكشف له بما استطاعت من سحر ما تخفيه تلك الابتسامات المرسومة على وجوههم من عيوب كفيلة لجعله يؤثر الوحدة وينفر عنهم.

... كانت مدرسته " مدرسة عبد النبي زيادة الابتدائية المشتركة " تقع في إحدى حواف القرية، وقد اشتيعت حولها أخبار الخوف، حيث أقيمت مقابر القرية على بعد خطوات منها، وكان الصبيان يروون الكثير من القصص عن ذاك الشبح الذي يسكنها ليلاً يجول فيها ويوقد بها المصابيح ويعد فيها حفلات من السمر الذي لربما رأى الجيران دخان اعداد الشاي دليلاً عليها.

... وكان يسلك إليها طريقاً طويلاً يخفف مشقته أنه خارج المنزل، تلك الجدران التي حجبت عنه ضوء الشمس الذي يسترقه من بين فتحات الشيش، ماراً في

طريقه على جموع من الناس وقد التفوا حول بائع الفول وانبعثت منهم ضوضاء يقطعها اسم زكريا – بائع الفول الذي عُرف بطول باله وحبه لتلك الجموع حول دكانه - ويفوح منها رائحة زكية.

.. كانت مدرسته قد بلغت من العمر ما جعل غيرها من الأحياء تحت التراب الآن، ولكنها كانت صامدة تستند على تلك الأعمدة المتصلة فيما بينها بشبكة حديدية تثير في قلبه حرمان مرتبط بشيش النافذة، كانت صغيرة الحجم كثيرة الأهل، فقد كانت كغيرها من المدارس المصرية في ذاك الوقت مكتظة بالطلاب، وكانت أيضاً تتصف بفقر المصريين فكانت قليلة الموارد شحيحة في بعضها، ولكنها مع ذلك كان لها من قوة المصريين وعزيمتهم ما جعلها تتخطى ذلك الفقر.

.. يبدأ يومه بدفيء يتحرك على صفحة وجهه يجلبه حنان أم لا تحب أن تناديه وهو نائم خيفة أن تفزعه، فكانت تجلس بجواره قرابة النصف ساعة محركة يدها على وجهه في رقة وحذر، كان يتلقاها ببسمة حائرة بين قسوة العصر

- حرمانه من الخروج للعب في الحي - وحنان الصباح، حتى إذا رأت البسمة تيقنت من صحوته فتركته ينهض وذهبت لتعد له الفطور.

... كانت أمه ربة منزل اشتُهرت بين نساء الحي بنظافتها الفائقة و طعامها الشهي و طلتها التي تشع في النفوس ما يشعه القمر من ضوء في سواد الليل ، و قد كانت شديدة الذكاء تعلم أن ذلك المديح الذي تلقاه من جارتها في أول النهار ليس إلا مقدمة لطلب تريده منها ، فكانت تسارعها الرد " ماذا تريدين هذه المرة " حتى إذا أخبرتها حاجتها أعانتها فيها بإعطائها بعض الأواني أو لون من ألوان الخُضر أو أداة من أدوات التنظيف ، فقد كانت طيبة القلب محبة للخير مسارعة في المساعدة و كانت دائماً ما تقول لزوجها إذا انتقد أحد أفعالها " وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ " ، فيرد عليها بنبرة الفخر المرتدية قناع السخرية " أعانك الله " .

.. كان الفطور الذي تُعده الأم دسماً يرأسه طبق من البيض المقلي بالسمن البلدي يزين وجهه بعض الأعشاب الخضراء، يحوطه من جوانبه أطباق قد مُلئت بالجبن والفول والحلاوة الطحينية، ولم تنس أن تعد زينة كل سفرة وهي طبق من السلطة اختلفت ألوان مكوناته ولكنها تشابهت في حجمها، فقد كانت تعده الأم في عناية وتنسيق.

.. إذا فرغت الأم من إعداد السفرة اجتمع ثلاثتهم عليها مباركيها باسم اللّه ، و كانت تلك السفرة تثير في قلبه شيء من حب يذهب عنه وحدته قليلاً ، فكانت تلك السفرة التي تقضي الأم في إعدادها وقتاً ليس بقصير سرعان ما ترفع ، حيث كان الأب السيد مُحمد عبدالقادر موظفاً في إحدى المصالح الحكومية و قد كان مُحباً للانضباط مُقدساً للمواعيد ، لذا لم يكن يلبث في تناول إفطاره إلا بضع دقائق ، ناهضاً عنه مرتدياً ملابسه ذاهباً إلى عمله ، تليه في النهوض الأم لتعد إلى ولدها حقيبته مزودة إياه ببعض الطعام الذي يعينه على قضاء يومه ، و

يبقى وحده على السفرة حتى إذا أنهى طعامه ارتدى ملابسه و تلقى حقيبته من أمه و معها قبلات تصافح وجهه ثم يودعها تاركاً إياها لتمارس عاداتها التنظيفية اليومية.

.. كانت أمه في تلك اللحظة تقف خلف الشيش تنظر إليه بنظرة تشبه نظرته إلى صبيان الحي وهم يتقلبون في ألوان من اللعب، وكان لها نصيب من تلك الوحدة التي تلازمه ولكنها سرعان ما تنهض لتشغل وقتها بالعمل الذي يؤنسها ويذهب عنها تلك الوحدة.

.. مضى الصبي في طريقه إلى مدرسته غارقاً في أحلامه التي زادت هذا اليوم، فاليوم هو بداية عام دراسي جديد، وكان يرأس تلك الأحلام التخلص من الوحدة بصديق يعثر عليه هذا العام، وظل شارداً مغيب الذهن حتى سمع صوت تحية أعادته إلى الواقع فوجد نفسه في مقعده بزاوية بأقصى الفصل.

(٢)

.. جلس في مقعده متخذاً عادته السنوية في تصفح الوجوه بعينه الساحرة لعله يجد في هذا الجمع من الطلبة زائراً جديداً فيه من الصفات ما يقربه إليه أو ينفره عنه كغيره، وها هي عينه تقع على صبي توسط في مجلسه الفصل، ولكنه شعر بأن سحر عينه قد اختفى، فقد أنشأ الصبي حوله حاجزاً من الصمت لم تستطع عينه أن تنفذ من خلاله.

.. ظل شارداً على غير عادته باحثاً عن ثغرة في هذا الجدار ينفذ من خلالها ليظفر بما يريد، حتى دق الجرس

معلناً انتهاء الحصة آذناً بالفسحة، فخرج الجميع تاركين وراءهم صبيين أحدهما منعه من الخروج علة في نفسه والثاني منعه فضوله تاركاً شوقه إلى المكتبة التي اعتداد زيارتها في مثل هذا الوقت، وفجأة انقطع الصمت بصوت توفيق – صبي من الفصل المجاور اشتهر بثقل ظله وحبه لمضايقة الآخرين وقد جاء كعادته مسرعاً يتصيد أحد المتخلفين عن الفسحة فيصب عليه من سخافته وحمقه – قائلاً:

- *أرى أن عقدة هذا الفصل قد تضاعفت اليوم.*

نهض الصبي قلقاً لحديثه محاولاً الخروج فمنعته يد امتدت لتسد الباب معقب صاحبها قائلاً:

- *إلى أين تذهب؟! أنا لم أبدأ حفلتي بعد.*

ازداد قلق الصبي فنهض لقلقه الآخر قائلا:

- *توفيق إني أتفق معك بأن العقدة قد تضاعفت فإني أراك اليوم أكثر حمقاً من العام الماضي،*

ولكن أعذرنا إذ لن نتمكن من الاستماع إلى سخافاتك حيث سنذهب إلى المكتبة وأعتقد أن عقدتك تجاه القراءة ما زالت ترافقك هذا العام أيضاً.

وخرج من الفصل وبيده صبي سيكون له في حياته تأثير كبير، تاركين توفيق وقد احمر وجهه من الغضب.

... مضى الصبيان في صمت قطعه صوت خافت متوتر:

- ***أحقاً أنت ذاهب إلى المكتبة.***

فأجابه رفيقه في ذهول مستتر خلف الهدوء بالإيجاب، فطلب منه أن يصحبه إليها وسارا حتى وصلا إليها حينها سمعا صوتاً غليظاً فيه شيء من حب – صوت السيد محمود أمين المكتبة – قائلاً:

- ***أراك يا أحمد وقد ظفرت هذا العام بصديق والأعجب أنك أقنعته بالمجيء معك إلى هنا.***

ابتسم له الصبي، ورفيقه لا يزال في قلقه الغامض الذي لم يفارقه يوماً، ثم أخذ كل منهما كتاباً وأخذا يقرآن في صمت ويبدو عليهما المتعة التي لن تدوم طويلاً، حيث تتحد بوقت الفسحة القصير.

.. كان الصبي قد هوي القراءة، وكانت كتب الفلك أكثر ما يثير فضوله وسط تلك الألوف من الكتب، كان يجد في علم الفلك خيال واقعي إذ أنه يصف حقائق مثبتة ولكنها لا يسهل تصديقها، فإضافة إلى زيادة ثروته العلمية يأتي الاستمتاع.

.. انتهى اليوم وعاد الصبي إلى منزله ومعه حيرة سببها هذا القلق المرسوم على وجه الزائر، وقد كان اعتاد على رؤية قلق على أوجه الطلبة الجدد ولكن قلق هذا الزائر يختلف كثيراً.

.. يأتي العصر ويقف الصبي خلف الشيش ولكنه هذه المرة لا ينظر إلى صبيان الحي وهم يلهون وإنما يفكر في الغد متشوقاً إليه وصورة الزائر لم تفارقه.

.. يأتي الصباح ومعه دفيء الأم ويمضي إلى فطوره ثم إلى مدرسته والفضول لم يفارقه، يدخل من باب الفصل وعينه على التخت الرابع في منتصف الفصل ذاك التخت الذي اتخذه الزائر مجلساً له بالأمس، ولكنه اليوم فارغ فالزائر القلِق لم يأتِ اليوم، تدور نظراته الفصل ويدور معها في عقله تساؤلات .... أين هو؟ وماذا حل به؟ وهل كانت زيارته قصيرة إلى هذا الحد أم ماذا؟

(٣)

... تمر الأيام و تمر معها الذكريات إلى مصرعها ، و عندما بدأ ينسى صورة الزائر يظهر له من جديد ، عاد الزائر في مشارف انتهاء العام و انتشرت حول غيابه و عودته الكثير من الشائعات التي كان يؤكدها للمتغنين بها هذا القلق على وجهه و هذا الصمت الذي يلتزمه و تلك العزلة التي اتخذ منها صديقاً ، البعض قال أنه فُصل من المدرسة لفقره و عجزه عن مصاريفها ، و البعض يقول دارت المشاكل التي كثر ما تدور بين الأزواج بين أبويه و كان هو ضحيتها ، و البعض قال أنهم تركوا البلدة لفترة

لأسباب غامضة ، و كان الصبي يسمع تلك الشائعات و ينظر إلى الزائر و في نفسه شيء من حيرة و فضول ، حتى انتصر فضوله على صمته و تحدث إليه أثناء وجودهما في المكتبة في إحدى حصص الأنشطة :

- *إني أراك منذ أن التحقت بمدرستنا وأنت ملتزم للصمت الذي أحبه، متخذاً العزلة التي تأتي غالباً من كره أو خوف .... ألم تعجبك مدرستنا؟ أم أن هناك مشكلة تواجهك فيها؟*
- *بالعكس إن تلك المدرسة أفضل بكثير من مدرستي السابقة ولكنني لا أعرف فيها الكثير.*
- *دعني أخبرك أنه أمر جيد أنك لا تعرف فيها الكثير فالمعظم هنا طغت طفولتهم على عقولهم فلم تبقِ منه سوى ما يجعلهم على قيد الحياة.*

ضحك الزائر وبدى عليه نوع من استحباب وأكملا حديثاً كسر وحدة كليهما وأشعرهما بشعور لم يعرفانه قط " الصداقة ".

.. تتوالى الأعوام وتقوى صداقتهما معها ويجد كل منهما في الآخر حضن يلجأ إليه إن خاف وحائطاً يستند عليه إن ضعف ويداً يتشبث بها إن وقع وسراً يسمعه ولا ينطق به، ولم يتوقف أثر الصداقة عندهما فانتشر بين الطلاب الذين وجدوهما روح في جسدين تنزل عليهم مطراً من نقد وترسل عليهم رياح من دهاء.

.. يصل الصديقان إلى المرحلة الإعدادية تلك المرحلة التي وجداها عديمة النفع مضيعة للوقت محولة للناس ، فكانا ينظران إلى هذا الجمع من الطلاب الذين انتقلوا معهم من المرحلة الابتدائية و قد دخلوا تلك المرحلة آدميين حمق و خرجوا منها حيوانات تسوقهم شهواتهم ، كان هؤلاء الأطفال يشعرون أنهم قد تقدم بهم العمر و صاروا شباباً و لابد أن يتصرفوا مثل الشباب متخذين في سبيل ذلك تلك الأفعال التي صورها لهم الفن - و لا يصح وصفه بفن _ من أفلام تجارية أشبه في تأثيرها بالدخان يسبح في الجسد فيذهب نفعه بالتدريج و كأنه يقتله بدم بارد .

... كان الصبيان في تلك المرحلة يتجه معظمهم إلى الدخان واجدين في ذاك الشيء المنحصر بين إصبعيهم وتقبله شفاههم إكمالاً لما يشعرون به من نقص متأثرين في ذلك بمن يحيطهم من رجال لم يحترموا الأبوة فطغت ملذاتهم على حساب تربية أبناء سيصيرون في الغد بناة الوطن، ولم يتوقف بهؤلاء الصبيان البائسين الحد إلى التدخين، حيث رأوا أنه لا رجل بلا امرأة، ولكن لقصر يدهم عن تحقيق تلك الرغبة اكتفوا بالحديث والمعاكسات والمخطوبات الوهمية التي صورها لهم عقلهم الفقير حقيقة.

... لم تتوقف المشاكل في تلك المرحلة على الصبيان فنالت الفتيات منها نصيبهن الذي لم يقل خطراً عن نصيب الصبيان، فقد تعرضن إلى ذاك العرف الظالم المنتشر في مثل هذه القرية من الزواج المبكر، حيث تخرج الفتاة من المرحلة الابتدائية لا تفقه في الحياة إلى الأقل، لتدخل الإعدادية وهي زوجة، لتخرج منها وهي أم،

فتجلب إلى هذا المجتمع أبناء تربيهم أم لم يتح لها أن تكمل تربيتها، وماذا ننتظر منهم في المستقبل!؟

... كان الصديقان ينظران إلى كل ذلك بعين قد فقدت ميزتها، فلم يلتفتا إلى هذا أو ذاك وإنما شرعا في رسم مستقبلهما بألوان الأمل وريشة الحالم.

(٤)

.. بينما الصديقان في أحلامهما يوقظهما كابوس فها هو الزائر يخبره سراً كتمه عنه ثمانية أعوام، ها هو يعلم سر القلق المرسوم على وجه الزائر طيلة تلك الأعوام، إنه مريض وعجز الأطباء في علاجه وبدأ يشعر بنهايته.

.. إنه المرض سبب القلق، كان قلقاً أن يبدو مرضه أمام الناس فهو لا يحب أن يظهر ضعيفاً، كان قلقاً أن تشعر أمه بألمه فتنهمر منها دموع لم يكره في الحياة أكثر منها فقد كان محباً لأمه مشفقاً على حالها الحزينة دائماً،

كان قلقاً أن يعلم صديقه بمرضه فينفر عنه وقد ظفر به بعد وحدة دامت سبعة أعوام، كان قلقاً أن يغادر الحياة قبل أن يحقق حلمه في أن يصير مهندساً يتحدث العالم عن روعة تصاميمه.

.. يشعر الصبي بالأسف ولكنه يبتسم لسر صاحبه وينفض عنه ذلك الكابوس ويعيده إلى أحلامهما وقد عاهده أنهما سيحققانها معاً.

.. تمر الأيام وإذ بالصديقين وصلا إلى عتبة أشرف جاويش - مدرسة ثانوية بمركز نبروه – تلك المدرسة التي تشوقا إليها وسمعا عنها الكثير وحسا أنها مرتبطة بمصيرهم، وإذا بهما يفترقان لأول مرة، ولكنه فراق لا يصحبه ألم بل يصحبه حب تزينه أحلامهما وتحتويه صداقتهما، فينضم الزائر إلى الشعبة الرياضية ليصير مهندساً، وينضم أحمد إلى الشعبة العلمية ليصير طبيباً تلك المهنة التي يأمل من ورائها بدواء يطيل صداقتهما.

.. يبدأ الصديقان في تجميع الخشب ليصنعا منه سلماً للوصول إلى أحلامهما، يصحوان باكراً معتمدين على

نفسيهما والتكنولوجيا، يتصل الأبكر بمن خدعه النوم، حتى إذا أنهى كل منهم شطره الأول من المذاكرة، تقابلا في طابور المدرسة الذي كان يحكمه نظام وهمي، أوهمه الطلاب المدرسين، وتوهم المدرسين توهمه، فإذا انتهى تفرقا كل على فصله ليعاودا الاجتماع عصراً متبادلين القصص حول يومهم.

... مرت سنتين بخير انستا الفتى سر الزائر ولكنهما لم تنسيا الزائر ألمه ولكنه كان قد اعتاد على وجوده، ولكن لا تشرق الشمس إلا وتغرب، ولا يأتي زائر إلى وله أن يرحل، يموت الصديق ويسمع خبر موته فتسقط دمعة من عينه حزناً وتتعلق الأخرى تكذيباً للخبر، ويغادر المنزل لأول مرة دون أن يخبر أمه عن وجهته، ويسير لا يلتفت إلى الطريق ولا يدري إلى أين ستقوده قدماه.

... يجد نفسه أمام منزل صديقه وقد غشى الأسود أركانه وفقد هدوءه المعهود، فيتيقن أن زائره رحل وتركه ليعاني من الوحدة من جديد، فيتجه الفتى إلى العزلة

ويلزم البيت راغباً فيه وتتحطم أحلامه التي وجدها الآن بلا فائدة.

... تستطيع الأم الفطنة بدهائها من اتخاذ حبه لها ولصديقه وسيلة لنزع عزلته وإرجاع أحلامه إليه تلك التي عاهد صديقه على تحقيقها، ولم تتركه إلا وهو قد وقف على بداية الطريق يتطلع إلى نهايته ويتعكز على أحلامه لقطعه.

(٥)

... يمضي في متاهة الثانوية العامة، وليس ذلك بتعبير مجازي، فقد كانت متاهة بالفعل لم تفرق فيها ببن ذكي أو غيره، وإنما كانت تطلب أقدام ثابتة وأنفاساً طويلة.

... بدأ السباق نشيطاً متيقظاً باذلاً كل شيء يقدر عليه، فقد لازم أفضل المدرسين واقتنى أغنى الكتب وخصص من وقته لها الكثير، ولكن الحياة ليست مثالية كما كان يتوقع أو كما أحبها أن تكون، فالمشكلات كثرت والوقعات أصبحت أمراً مألوفاً.

.. نسى الفتى كل وقعاته حين تقدم به العمر ولكنه ظل يتذكر منها ثلاث " الملل، الإحباط، الخبرة "، كان طول الثانوية العامة عاملاً مهماً في خيبة أمل كثير من الطلاب وفي فرحة البعض، فكان هذا الطول يحول النشاط إلى كسل والكسل إلى نشاط، وكان يلون حياة الطلاب بألوان الملل الذي يدفعهم إلى كره المذاكرة.

.. كان الفتى يتعامل مع الثانوية معاملته مع المراحل قبلها غافلاً عن أنها إن شابهتهم في المذاكرة والامتحانات اختلفت عنهم فيما تبثه في النفوس من قلق وتوتر من ينتظر مصيره، وكان هذا القلق يشع في نفسه خوفاً كلما رأى كتاباً.

.. إن كان هاذان العاملان خطيرين فإن الثالث يفوقهم خطراً، حيث كان في الثانوية أشباح من بشر اتخذت من بث الإحباط في النفوس وظيفة لها، وقد كان لتلك الأشباح أنواع، فمنهم الثعلب ومنهم المتقي حسد ومنهم الشكاء حاله، وبالرغم من اختلاف نوايا تلك الانواع إلا أن لهم نفس التأثير من تحطيم الآمال وبعث حالة من

الظلام تحجب عن الطلاب رؤيتهم وتجعلهم يتخذون من الدراسة عدواً.

.. بالرغم من حبه للدراسة وللعلم إلا أنه تأثر بتلك العوامل كما تأثر بها غيره، وسار في طريقه متخبطاً لا يرى الطريق بعد أن كان أمام عينيه.

.. كانت الأحلام والاتجاه إلى الله هما ما يدفعا عن الطلاب مشاكلهم، فكانت أحلامهم تدفع عنهم الملل وكان اتجاههم إلى الله يشع فيهم الأمل والطمأنينة، ولكن الفتى فقد أحلامه مع صاحبه وأبعدته الثانوية عن الله.

.. دقت أبواب الامتحانات، وما كان من مشاكل طول العام تضاعف أثناء الامتحان وكان تأثيره فظيعاً، لن ينسى الفتى تلك الأيام التي تحول فيها ما سعى طول العام في تحصيله إلى سراب، فقد تسبب توتره في محو ذاكرته فلم يذكر مما ذاكر إلا قليل.

.. انتهت الامتحانات وما هي إلا أيام وظهرت النتيجة وتبعها التنسيق .. .. " كلية العلوم جامعة عين

شمس " وقد كان وقع هذا الخبر على الفتى مفجعاً فقد خالف عهده لصديقه وتحطم حلمه وحلم والديه معه، كما أن كلام الناس الذي لم يكن يعره اهتماماً من قبل استطاع الآن أن يتسلل إلى قلبه محطماً ما بقي فيه من أمل.

(٦)

.. يجلس الفتى في القطار المتجه إلى القاهرة غير آبه لما ينتظره هناك من وحده فهو قد اعتاد كونه وحيداً، حاملاً معه بعض ألوان الطعام التي حضرتها له أمه وبعض النقود من والده وحطام أحلام واستسلام لليأس.

.. تجوره امرأة يبدو من وجهها المتعرج أنها ناهزت الستين، وقد أصيبت من المرض ما تسبب لها بشلل في معظم جسدها وطغى العمر عليها فأفقدها الذاكرة من حين لآخر، تجلس أمامها فتاة في العشرين من عمرها ترتدي ثوباً أسود روته دموع تناثرت من عينيها، بجوارها

رجل قد وضع يده على كتفها وأخذ يواسيها وكان يبدو على وجهه بعض حزن.

... فجأة تتحدث المرأة مخاطبة الفتاة:

- ***لماذا تبكين يا بنيتي هل مات لك عزيز؟! وأين أمك تلك المرأة القاسية التي تترك ابنتها في مثل ذلك الوقت؟! تعالي إليّ يا بنيتي فأنا كما ترين لا أستطيع أن آتي إليك واحتضنك.***

ترتمي الفتاة في حضن أمها والدموع تزداد انهماراً، وتستمر المرأة في الحديث:

- ***اعذريها يا بنيتي لربما كانت مريضة مثلي، ولكن اعلمي أنها أينما كانت لا تتوقف عن الدعاء لك ما دام لها قلب ينبض، ولكن أخبريني يا بنيتي أين أنا؟ ومن الذي أحضرني إلى هنا؟***

وقبل أن تجيبها الفتاة أكملت المرأة حديثها ولكن يبدو عليها هذه المرة شيء من وعي:

- *أنتِ لما تبكين أتحبينني أكثر من نفسي أم أنك تعتقدين أنني سأتركك وأموت، لا تقلقي إنني في الطريق إلى المشفى الآن وما هي إلى ساعات وأسترد صحتي وحينها سأضربك على بكائك هذا، وأنت ألم تعهد لي حين تزوجتها ألا تجعلها تبكي ويلك مني، لن أرحمك حين أشفى على إبكائها.*
- *إنني لا أبكي يا أمي هو محض تراب أثار عيني، والأطباء طمأنونا على ....*

لم تدعها المرأة تكمل حديثها معقبة:

- *أطباء ... أتعتقدين أنني أهتم بكلامهم، إنني أطلب الشفاء من الشافي وأعلم يقيناً أنه لن يخيب دعوتي فهو القادر على كل شيء، و الحمد لله على حالي فأنا أفضل من غيري بكثير.*

.. ينظر الفتى إلى ما يدور حوله، مستمعاً إلى ما فيه من حديث، واجداً في عين تلك المرأة أملاً لم يسبق له أن رأى مثله.

.. يصل إلى مساكن الطلبة ويستسلم إلى النوم بعد ما لقاه في ذلك اليوم من عناء، مفكراً في كلام المرأة، متذكراً صديقه كعادته، غارقاً في حطام أحلامه التي بدت له هذه المرة قابلة لإعادة البناء.

(٧)

.. يستيقظ الفتى و لكنه لا يفتح عينيه منتظراً الدفء الذي تأخر هذا الصباح ، و لكن الدفء لن يأتي ، يفتح عينيه ببطء و كأنه يود أن يرى أحداً دون أن يراه ، و لكنه لا يرى سوى غرفة ضاقت جدرانها لها باب يتناسب مع ضيقها و نافذة تطل على شارع يعم بالضجيج ، و قد فرغت الغرفة من الأثاث إلا سريراً فُرشت عليه ملاءة بالية لم يلتفت إليها بالأمس لشدة تعبه يقابله سرير آخر و مكتب وضع في زاوية بالغرفة ، فذكره منظر الغرفة

المختلف عن غرفته التي زينت بأفضل الأثاث و الستائر أنه ليس بالمنزل و أنه لا فائدة من الانتظار .

.. لم يكن دفيء الأم الشيء الوحيد الذي لم يجده في القاهرة، فهو الآن لا يجد الفطور ولا يعلم كيف يعده، لولا أنه تذكر ما حملته به أمه من طعام، فأكل شطيرة جبن، ثم خرج ذاهباً إلى أول محاضرة له.

.. رغم ما تعود عليه الفتى من وحدة إلا أن الغربة لها طعم مختلف، لقد اشتاق إلى حنان أمه، اشتاق الى شجارهما على سفرة الغداء من كل جمعه لأنها طهت المحشي الذي لا يحبه، اشتاق الى الحاحها عليه بالبرتقال واشتاق الى امتناعه عنه، اشتاق الى والده والى حديثه معه ليلاً متناقشين في معضلة ما، والأعجب أنه يشتاق إلى وقفته خلف الشيش ناظراً إلى صبيان الحي.

.. لقد وجد في الغربة وحشتين، وحشة الشوق التي تؤرق نومه وتلهب قلبه وتشغل تفكيره، ووحشة الاعتماد على النفس، فقد كان مضطراً الى اعداد طعامه وتنظيف ملابسه وغرفته بالإضافة الى الدراسة.

... عاد الصبي إلى الغرفة ظهراً، فاتحاً باب الغرفة ليجد الوحشة الثالثة الذي يختص بها القدر القليل من المغتربين، إنه إسلام طالب بكلية الحقوق الذي يبدو أنه دخلها مع انجراف تيار التنسيق، فقد كان جاهلاً بحق الغير، كما أنه كان فظاً غليظاً لا يعرف شيءً يسمى احترام، ودار بينهما أول حديث:

- *عذراً لم أكن أعلم أن هناك أحداً بالداخل.*
- *لا تضع في بالك يا رجل.*
- *إذاً فأنت إسلام، في أي كلية أنت؟*
- *في كلية الحقوق وما أحلاها الحقوق!*

بدى الفتى متعجباً من إجابته معتقداً أنه قصد بها شيء ما ولكنه لم يرغب في السؤال عنه، وأكمل حديثه:

- *ألم يكن لديك محاضرات اليوم.*

ضحك إسلام وأجاب ساخراً:

- *محاضرات ..... بلى عندي ولكنها لا تبدأ إلا بعد العصر، ولكنني أعجب أين ذهبت باكراً؟*
- *لقد كان عندي محاضرة كيمياء ودرس عملي.*
- *لا تقل لي أنك من الدحيحة أصحاب المحاضرات والمذاكرة.*
- *ولكننا اغتربنا وجئنا هنا من أجل المحاضرات والمذاكرة.*
- *نعم تغربنا ولذلك يجب الاستمتاع بتلك الغربة قبل أن تنتهي .... اه لقد وجدت طعاماً في حقيبتك فأخذت منه ولا أعتقد أنك تمانع.*
- *ولكنني أذكر أنني أغلقت الحقيبة قبل أن أخرج.*
- *نعم عندك حق، ولكن فضولي دعاني إلى فتحها.*

تضايق الفتى ولكنه كتم غيظه ورد هادئاً:

- *لم يبق معي طعام الآن فهل طلبت من المطبخ حصتنا من الغداء.*
- *لا فأنا لم أعد جائعاً.*

- *ولكن وقت حجز الحصص يكون في تمام العاشرة وكان عندي محاضرة ولم أستطع أن أبلغهم الحجز، وكنت سأعتمد على الطعام الذي كان معي.*
- *إنني أشعر بالأسى لأجلك ولكن كان عليك التغيب عن تلك المحاضرة، فليس هناك شيء أهم من الطعام .... اعذرني على المغادرة الآن فالمحاضرات في انتظاري.*

ذهب إسلام بارد الأعصاب وكأنه لم يفعل شيء، تاركاً أحمد يحاول كتم غيظه وجوعه معاً.

.. لم يكن الطعام المشكلة الوحيدة بينه وبين إسلام، فقد كان إسلام يرجع بعد العشاء بعد أن أنهى جولاته العبثية، مستأنفاً عبثه بأغاني صاخبة ومحادثات بينه وبين أصحابه غير منتبهاً إلى أن هناك من يشاركه الغرفة:

- *إسلام.. هل يمكنك خفض الصوت فأنا لا أستطيع التركيز في المذاكرة وسط تلك الضوضاء.*
- *أعذرني فأنا لم أنتبه إليك.*

خفض إسلام صوت الأغاني قليلاً ليعوضه بصوته الغليظ المرتفع.

- *إسلام.. هل لك أن تخفض صوتك.*
- *عذراً إني أتحدث في الهاتف، يمكنك أن تأخذ راحة من المذاكرة حتى أنتهي.*
- *ولكنك لن تنهي تلك المكالمة حتى يأتي الفجر.*
- *يمكنك أن تذاكر صباحاً فأنا أكون نائماً وقتها.*
- *ولكنني لدي محاضرات صباحاً.*
- *لا تزعجني بحديثك فأنا مشغول الآن، وهي في النهاية مشكلتك وليست مشكلتي.*

ملأ   ولكنه وجد أنه إن أخرج غضبه كل مرة فلن تخلو تلك الغرفة من الشجار ولو لدقيقة واحدة، فكتم غيظه وحاول جاهداً أن يتجاهل هذا الضجيج.

.. كان شوق الفتى يدفعه إلى النزول إلى قريته مع كل إجازة، وكأنه يحاول أن يملأ نفسه الفارغة بالزاد من حب وحنان، ويشبع معدته التي جنى عليها طعام السكن بطعام أمه الشهي، ويريح أذنه من ضوضاء إسلام.

.. لقد عان الصبي أول الأمر، فكانت تطغى دراسته على صحته أحياناً، وصحته على دراسته أحياناً أخرى، وعاش في تخبط يشبه التخبط الذي عاشه غي الثانوية ولكنه يزداد عليه وحشة الغربة وإسلام، كان لهذا التخبط أثراً كبيراً في أن تتكرر مأساة الثانوية، فقد حصل في سنته الأولى على تقدير منخفض قضى على ما بقي لديه من حطام أحلام.

.. لم يعلم الفتى خطأه، أهي الغربة أم أنه استسلم للفشل، لم تكن تلك هي المشكلة، وإنما

المشكلة في عجزه عن التفكير وكأنه فقد فطنته، وبدأ يشعر بانكماش عقله.

... إننا بشر حين نيأس من مستقبلنا ونفشل في حاضرنا لا نجد لنا إلا الماضي لنعيش فيه، لم يبق للفتى سوى ذكرى زائر وامرأة عجوز وأول محاضرة له، تلك المحاضرة التي ألقاها الدكتور سعيد – رجل بشوش الوجه كرس حياته للكيمياء – متحدثاً فيها عن دور الكيمياء العظيم في الحياة وعن علاقتها بالكثير من العلوم خاصة الطب.

... وجد الصبي في ماضيه حلم ضاع، وأمل وطريق بديل، ولكنه لم يفهم ذلك ولم ير ذكرياته بتلك الصورة حتى كان ذلك اليوم الذي مر فيه من أمام مشفى الجامعة ووجد طفلة لم يبق لها من الشعر ما فيه حياة وكأنه يرى الزائر وهو يودعه، ما هذا المرض الذي يحرم طفلة من أبسط حقوقها، ما هذا المرض الذي يفطر قلب أم لم تجن شيءً سوى أنها أنجبت، ما هذا المرض؟!

.. يتذكر الفتى قول الزائر " كنت أقلق أن أبكي أمي "، ويتذكر كيف ترك حزنه في الماضي وخرج من عزلته ليوقف بكاء أمه، ويتذكر دموع فتاة القطار المنهمرة حزناً على حال أمها، إن هؤلاء الأطفال لا يعبؤون بألم المرض وإنما يوجعهم ألم الحزن في صدور أمهاتهم.

.. لم تفقد المرأة الأمل في الشفاء ولم يفقده زائره يوماً فكيف فقده هو، لقد رأى في كليته فرصة لإعادة بناء حلمه، وجد فيها فرصة لرسم البسمة على وجوه الأمهات وأولهم أمه، وجد فيها فرصة للوفاء بعهد قطعه على نفسه، هنا استعاد الفتى حلمه ونسى غربته أو تناساها.

(٨)

.. يبدأ عامه الثاني طالباً بقسم الكيمياء كلية العلوم جامعة عين شمس، يصحو باكراً طاهياً لنفسه طعام الغداء، ذاهباً إلى كليته، فاذا عاد منها لم يشغل وقته بشيء سوى المذاكرة، وقد طلب الفتى تغيير غرفته هذا العام متخلصاً من إسلام وأفعاله، وانقطع عن نزول إجازة الجمعة بالرغم من مشقة هذا القرار عليه مستغلاً ذلك الوقت في تنظيف غرفته وثيابه ومذاكرة ما لم يكمله طيلة الأسبوع، فلا ينزل إلا مرة في الشهر ينتظرها بنار الشوق.

.. كان يرى أن تلك الزهرة التي سقطت من فرع الشجرة ليس لها أن تظل تنظر إليه حتى تذبل وتموت بل عليها أن تنبت لتصبح شجرة تعلو فروعها لتصل إلى ذلك الفرع فيشعر بالفخر أن هذه الشجرة العظيمة سقطت يوماً منه.

.. و الحق أنه استفاد من غربته كثيراً فقد صار طباخاً بارعاً تغار منه أمه ، فكان يمتع معدته بالدجاج المشوي مع المعكرونة بعض أيام الأسبوع ، و الكشري الأصفر مع رقائق البطاطس في البعض الآخر ، و السمك المقلي مع الأرز الأبيض من حين لآخر ، و لم ينس تلك المرة التي تحدى فيها نفسه و طهى طاجن بطاطس باللحم – طبخته المفضلة التي كانت رائحتها وحدها تشبعه و تسعد قلبه – و لكن تلك الطبخة بالتحديد كانت تذكره بطعام أمه و تدليلها للطبق و تزينها إياه فيجده الجائع لوحة فنية تشبع روحه قبل أن تشبع جسده ، كما أن غرفته ضرب بها المثل في النظافة و التنظيم فقد كان مولعاً بهما كأمه .

... رغم تغلبه قليلاً على الغربة إلا أن صعوبة الكلية وكبر مناهجها وكثرة محاضراتها كانوا عقبة دون تحقيق حلمه، فهو يذكر كيف نغصت البروتينات ليله وشغلت الفيتامينات التي تشابكت وظائفها ومصادرها تفكيره، وكم كانت الدروس العملية تذرفه الدموع وتهيج حواسه وتضطرب لها معدته ويتوتر فيها تنفسه، ولكنه كان يرى أن حلمه يستحق ذلك التعب بل يستحق أكثر من ذلك إذا رغب، فلم يرهقه السهر بل سعد به، ولم يضق بالمذاكرة بلى وجدها أنيساً ولم ينفر من طول المحاضرات بل بكر إليها.

... كان الفتى كلما وقع في حفرة من حفر الدراسة تذكر حلمه الذي ينتظره على السطح، فلم يهتم لعمق الحفرة بل حاول الصعود غير ناظر خلفه بل ناظر إلى المسافة القليلة المتبقية.

... وجاءت الامتحانات، تلك اللحظة التي انتظرها، تلك اللحظة التي شعر فيها بالخيبة مرتين، فماذا ينتظره

هذه المرة؟، هل يجد فيها أملاً أم أن اليأس سيدق بابه مرة أخرى.

.. لم تكن الامتحانات بالسهلة وإنما شابهت في صعوبتها صعوبة الدراسة بل ربما فاقتها، وكان يشعر الفتى في كل لجنة أنه يبتعد عن حلمه خطوة، ولكنه لم يدع الخوف يسيطر عليه كما فعل من قبل، وأخذ يتلقى الأسئلة الصعبة بابتسامة، وكأنه يحدثها قائلاً " اعذريني لن أدعك توقظيني من هذا الحلم الجميل ".

.. انتهت الامتحانان وبدأت الإجازة، فلم ينتظر ظهور النتيجة وترك القاهرة، ولكنه لم يتجه إلى المنزل وإنما إلى الإسكندرية، حيث المؤتمر الطبي لمناقشة مرض السرطان والذي سيحضره أطباء وكيميائيون من أنحاء العالم، وحيث مكتبة الإسكندرية لتمده بما رغب من كتب.

.. كان الفتى قد سمع عن هذا المؤتمر الذي سُيعرض فيه الدواء الذي توصل العلماء إليه والذي يمنعهم من استخدامه أعراضه الجانبية الخطيرة،

محاولين أن يصلوا إلى حل لتلك المشكلة، وقد رغب الفتى أن يكون واحداً من الحضور، فيستمع إلى أراء هؤلاء العلماء وحلولهم، فيكون بذلك قد خطى خطوة كبيرة في طريقه.

... ويصل إلى الإسكندرية ويصل مكان المؤتمر ليتفاجأ بأنه لا يسمح بالحضور إلا لأساتذة الجامعات فقط، في تلك اللحظة نبض قلب الصبي متذكراً صعوبة الامتحانات خائفاً من النتيجة قلقاً أن يضيع حلمه من جديد، وعاد الصبي إلى المنزل منسيه حزنه الكتب التي رغب في شرائها.

(٩)

.. وصل الفتى إلى المنزل فوجد أمه بانتظاره فارتمى في حضنها ليشبع نفسه من الحنان الذي حرمته الغربة منه، ثم سلم على أبيه، وحَضِر معهم سفرة العشاء، ثم استسلم بعدها إلى نوم عميق فيه شيء من اطمئنان لم يجده في نوم المغترب.

.. يستيقظ في اليوم التالي على دفيء أمه، ثم يجتمعوا ثلاثتهم على الفطور محدثهم الفتى عما مر به في غربته، مستقبلين حديثه في أسى تارة وفي نوبات من

الضحك تارة أخرى، وشعر الفتى أن هذا اليوم أفضل يوم مر به في حياته.

... ما أحلى ذلك الشعور، إنه الفراش نفسه، والدفيء نفسه، والفطور نفسه، ولكنهم اليوم أكثر تأثيراً من أي يوم، إنها نفس المغترب التي تصور لنفسها عود القش في بيتها ساقاً من ذهب، والبعوض فراشاً، وكأن ذلك المنزل يكيد لساكنيه ويصب في صدورهم سحراً كي لا يتركوه.

... لم يكن كسولاً، ولكن ليس هناك ما يفعله في هذا الفراغ، فقد كان سيقضي إجازته في دراسة ما سيسمعه في المؤتمر ولكنه لم يتمكن من الحضور ولم يَصور المؤتمر في الوقت الذي نجد فيه شاشات التلفاز وقد ملئت بالمؤتمرات الصحفية والرياضية والاقتصادية، أما العلم فليس من الشيء المهم الذي تهتم به الدولة حكومةً أو شعباً.

... مضى تلك الإجازة يدفع الملل عنه بالقراءة تلك العادة التي سُلبت من معظم الناس واستبدلوها

بمشاهدة الأفلام والاستماع إلى الأغاني، وإن وجد الفتى فيهم المتعة ولكنه لم يجد فيهم النفع بالقدر الذي وجده في القراءة.

.. كان الفن في هذا الوقت يتسم بالغرابة، فقد ابتدع فاقدي الفن لوناً جديداً من هزل الغرض منه التجارة مطلقين عليه اسم الفن الشعبي، وكأن أحداً لم يخبرهم أن الفن الشعبي هو أصل ألوان الفنون المختلفة، وأنه بريء مما يدعونه عليه.

.... أوشكت الإجازة على الانتهاء، وظهرت النتيجة وحصل على تقدير امتياز ورتب الثالث على دفعته، ورغم أن تلك النتيجة كانت لتسعده في الماضي إلا أنها الآن بدت وكأنه رسب، فحلمه يتوقف على التعيين الجامعي وذاك بدوره يتوقف على المركز الأول، ولكنه رغم ذلك وجد فيها دافعاً يحثه على التقدم وذكرى تنسيه مشقة الدراسة.

.. وانتهت الإجازة، وكان عليه أن يودع منزله وأهله ويستقبل الغربة من جديد، فتلك الأشهر القليلة كانت

كفيلة أن تنسيه غربته، حتى إذا عاد إليها شعر كأنه يغترب لأول مرة في حياته، ووصل القاهرة ليبدأ ألم الشوق وسهر المذاكرة ورحلة الحلم.

(١٠)

.. كان العام الثالث له بالكلية سريع المضي، لم يشعر فيه بانقضاء الوقت، انتهى بحصوله على المركز الأول لهذا العام، والمركز الثالث بالنسبة للمجموع التراكمي، وبدأ يشعر باقتراب حلمه، وزاد خوفه عليه حتى تحول إلى قسوته على نفسه وكأنه صورة مصغرة عن أبويه، ربما الشيء الفعلي الذي استفاده من هذا العام، هو فهمه لقسوة أبويه عليه وتقديره لحبهما الكبير تجاهه.

.. لم تكن حياته الدراسية مقتصرة على الدراسة فقط، فكان عضواً في إحدى الأسر الجامعية، التي كان لها نشاطات اجتماعية وخيرية وفنية، وقد استفاد من تلك التجربة كثيراً، فتخلص قليلاً من انطوائه ونمى مهاراته الكتابية وأحس بقيمة الوقت وتعلم إدارته، وكانت الأعمال الخيرية تبث في روحه سلام وكانت دعوات الناس تلتف حوله كالحصن فتقيه مما يتربص به من شر.

.. وحين بدأ عامه الأخير في الكلية، شعر كأنه يدرس لأول مرة، وأحس بأن مصيره متعلق بتلك الحزمة من الورق الذي وإن أهان عليه الأمر القيمة العلمية للورق، إلا أنه لم يكف عن سخطه على تلك المنظومة التعليمية التي تتلاعب بمستقبل ملايين من الطلاب، ولكنه قد عزم في قرارته أنه لن يكون دمية في أيد الدولة تحركها كيفما شاءت، فالإنسان يبني البيت وليس العكس، فلن يسمح هذه المرة أن يتخلله اليأس أو يقيده الحزن.

.. فمضى الصبي في عامه حريصاً على درجاته، راغباً في المركز، ولكنه غير خائف على حلمه، غير متخلياً عنه، ودخل الامتحانات مستعداً لها، وخرج منها منتظراً نتيجتها متحليًا بالصبر تارة مستسلماً للقلق أخرى، وبعد ثلاثة أشهر من الامتحانات جاءته النتيجة فصدم لها وسقطت لها دموعه ودموع أبويه معه.

.. وفي قاعة كبيرة فرشت بالزهور وزينت جدرانها بالستائر الحمراء المرتدية سواراً من ذهب، وملئت بالطلاب وأقاربهم والأساتذة، كُرم الفتى وعُين بالجامعة، وكان لحظة تلقيه شهادة التخرج يتأمل في الدنيا واصفها بالأم التي تنتظر بكاء رضيعها لتفهم ما يريد فتعطيه له أو تمنعه عنه، وكان يرى في القدر أبواباً كثيرة قد يغلق في وجهنا بعضها ولكنه غلق لا فائدة منه فباقي الأبواب تؤدي إلى نفس المكان ولكن بطريق مختلف.

.. أحس الفتى أنه الآن لا يمنعه شيء عن حلمه، وأن الساحة تركت له، ومصيره الآن بيده لا بيد الدولة، وكان في تلك اللحظة أكثر خوفاً، فقد كان خائفاً ألا يفي

بعهده، وكان خائفاً ألا يكون جديراً بتلك المكانة التي وصل لها، وخائفاً أن يكون هذا الحلم الذي عاش معه عمره ليس من حقه، ولكن لا يمكنه الحزم في ذلك، وما عليه سوى المحاولة والانتظار.

(١١)

.. لقد حقق أول أحلامه، ولكن هذا الحلم أبقاه في غربته، فمن ناحية هو معيد في جامعة عين شمس، ومن أخرى هو في العاصمة حيث يمكنه الشروع في بحثه، فلن تنتهي الغربة بنهاية الدراسة كما كان يصبر نفسه بل هي على وشك أن تبدأ.

.. شرع في تحضير الماجستير، وحصل عليه بعد مرور عام من تخرجه، وقد كان القدر في هذه الأيام صديقاً يُقدم له يد العون، فأتيحت له فرصة للسفر إلى إنجلترا

لتحضير الدكتوراه، وكانت تدور حول إيجاد علاج للسرطان.

.. حين وصل إنجلترا، وجد أن الغربة ازدادت ظلماً وطمعاً، فحرمته من الزيارة الشهرية التي كانت تزوده بما افتقده فيها من دفيء واطمئنان، كما أن شوقه لم يكن مقتصراً على بيته وأسرته بل زاد عليه شوقه لوطنه برغم ما فيه من فوضى وزحام وتفرقة، ولكنه كان يجد في ذلك الحرمان دافعاً لإنهاء دراسته سريعاً قبل أن يقتله الشوق، ويرثه الحرمان.

.. ومضى في دراسته جاهداً، فدرس كل ما له علاقة بالمرض، وفتش في الأبحاث قديمها وحديثها، وأقام الكثير من التجارب، وحضر الكثير من الأدوية، ولكنه في كل مرة يفشل سواء لعجز الدواء عن القضاء على المرض أو لتسببه في مشاكل خطيرة أخرى.

.. في ظل غرقه في أبحاثه ، كان كأي مصري مهتماً بم يدور في وطنه من أحداث خاصة إن وجدت انتخابات حقيقية بعد فترة من الثبات الرئاسي ، و قد رشح هذا

العام غير المرشح الثابت لدورتين شاباً في الخامسة و العشرين من عمره ، و لكنه رغم صغره كان من أنجح المستشارين الاقتصاديين حول العالم ، و قد كان برنامج هذا الشاب حافلاً بالمشروعات الاقتصادية التي بدت عقلانية أكثر من كونها خيالاً سيعيد إلى مصر أمومتها ، كما أن ماضي عبدالغني و حاضره يرسمان ما فيه من إيمان و وفاء و فطنة و عقل سياسي جعله محبوباً من كل المحيطين به ، فنال فور ترشحه على شعبية كبيرة ، خاصة بعد ما وجده الشعب من تراجع اقتصادي و تعليمي و صحي في الآونة الأخيرة .

.. لم يمض على ترشح عبد الغني أسبوعين حتى صدر إعلان بانسحابه، كما أنه اختفى عن الصورة، ولم يكن ذلك بالغريب ولكن الغريب كان عدم سؤال الناس عنه أو عن سبب انسحابه، وكأنهم يعلمون إجابة السؤال مسبقاً.

.. كان الغريب أيضاً في فكرة الانتخابات، أنها تبدو ديموقراطية ولكنها في الأصل عكس ذلك، فهي تعطي الحق للمواطن في التصويت ولكنها تفرض عليه

المرشحين، فتعتبر الصوت الرافض لكل المترشحين ملغياً، فيا لها من مزحة.

.. كانت خيبة الأمل الوطنية كبيرة، ولكن دفعتها نتائج التجربة الأخيرة، فقد نجح الدواء الجديد على الفئران ولم يترك آثار جانبية يقلق منها، ولم يبق سوى تجربته على البشر.

.. عاد إلى الوطن ومعه بحثه ودرجة الدكتوراه وموافقة بتجربة الدواء على البشر، وجاءت نتيجة الدواء على البشر كنتيجته على الفئران، وهنا تحقق حلم الصبي.

.. أقيم مؤتمراً لمناقشة هذا البحث ، و أصر الفتى على إقامة هذا المؤتمر في مصر ، و حضر المؤتمر أطباء و علماء من أنحاء العالم ، و وقف الفتى ليلقي كلمته الافتتاحية قائلاً " إن الحلم لا يقتصر على كلية بعينها ، فمن كان يريد أن يكون دكتوراً ، فإن جميع الكليات تتيح ذلك ، و من كان يريد أن يكون طبيباً فيمكنه أن يساعد في علاج الناس حتى و لو لم يدخل أي كلية من الأساس ، و من كان يريد أن يكون ناجحاً فالنجاح هو طرد الحزن الذي

يكبح إرادتنا و يقتل أحلامنا و يشل حركتنا ، و من كان يريد أن يكون غنياً فعليه أن يتذوق أولاً طعم الفقر ، أما من أراد وظيفة في مصر فليس عليه سوى أن يدخل كلية الطب و عليه أن يسرع في ذلك قبل أن تنضم إلى أخواتها من الكليات الأخرى ، إنني أرى شباباً اتخذوا من المقاهي منازلاً متوهمين أن حلمهم دمرته الثانوية و تلتها في تدميره الكلية ، و أنا الآن أعالج آلاف المرضى في أنحاء العالم و أنا لم أدرس الطب ، إن الحلم هو من اكتشف هذا الدواء و ليس أنا ، إن الأمل هو من جمعنا الآن من بقاع الأرض ، إننا اليوم نحتفل بالقضاء على مرض و لكن العالم مليء بالأمراض التي اندست في أفكارنا و غزت عادتنا و حطمت مبادئنا و أنستنا ديننا ، لن يقضي على تلك الأمراض مركب كيميائي ، بل سيقضي عليها عقول حالمة و قلوب آملة "

(١٢)

.. يا له من ملل، رغم أنه تزوج وأنجب طفلة يغار منها القمر أسماها ليلى لتذكره بأحلامه التي تزوره ليلاً، إلا أن الملل كاد يقتله، فهو يذهب صباحاً إلى الكلية، عصراً إلى معمله، ليلاً عائداً لبيته، ثم يعيد تلك الدورة في اليوم الثاني.

.. لقد رأى أنه لا معنى للحياة بلا حلم يسعى لتحقيقه فيفشل في ذلك فيحاول مرة أخرى، وجلس ينتظر ما الذي تعده تلك العين وهذا العقل من أحلام.

... إنه ضوء يقترب شيءً فشيء، وها هو يستقر في عقله، إنه الحلم الجديد " مبادرة العربية وكفى ".

... ظهر مؤخراً في المجتمعات العربية ما يسميه الناس رقي، ويجده هو تخلف، فقد انتشر بين الناس وخاصة صغار السن شعور سام بازدراء العربية، متخذين عوضاً عنها لغات المجتمعات الراقية.

... كان هو ومجموعة من الكتاب الناشئين في ذلك الوقت، يرون في ذلك نوعاً من أنواع الغزو التي تهدف إلى تحويل المجتمعات العربية بالتدريج إلى مجتمعات أجنبية، وإن لن تكن تابعة لها سياسياً، فإنها ستكون تابعة لها اجتماعياً.

... أقام هؤلاء الشباب حملة بعنوان " العربية وكفى "، كان من أهداف تلك الحملة:

- الاهتمام بالأعمال الفنية المكتوبة والمسموعة والمرئية، لتنقل إلى العامة صورة عن عظمة اللغة ومجتمعاتها ومبادئها ومبادئهم.

- حث الناس خاصة الشباب على استخدام العربية في التعبير عما بداخلهم من معانٍ، متخليين عن اللغات الأخرى.
- الاهتمام التعليمي اللغوي، باستخدام بلاغة اللغة التي تحسدها عليها اللغات الأخرى، في صياغة المناهج، والاهتمام أيضاً بتعليم اللغات الأخرى مع حصر استخدامها للطوارئ.
- إعادة الرقابة اللغوية على الإعلام، لمنعه من إفساد اللغة لدى العامة.

.. كان ذلك الحلم وإن بدى بسيطاً، أصعب بكثير مما سبقه من أحلام، حيث لم يكن يواجه القدر هنا، وإنما كان يواجه مجتمعات بحكوماتها وشعوبها.

.. ولدت الحملة في الحادي والعشرين من فبراير من عام ألفين وستة وعشرين ميلادياً، ولقيت نقداً كثيراً من البعض، وسخرية من البعض الآخر، وصفها البعض بحملة إلى الجاهلية، والبعض بحملة أصحاب الكهف، أما النقاد فجاء نقدهم بضعف اللغة عن التعبير عن أحداث

العصر الحديث ومكوناته، ولكنها لقت مع ذلك القليل من المؤيدين.

.. رفض الإعلاميون الحملة واعتبروا ما جاء فيها إهانة لهم، ورفض أصحاب الفن الحملة واجدينها بعد عن الواقع، ورفضت الحكومة الحملة بهدف مواكبة التطور التعليمي - الذي لا نراه إلا في تصريحاتهم -، ورفض الشباب الحملة لأن كل ما هو عربي سيء.

.. إهانة لإعلاميين، لم يعلم معظمهم يوماً ما هو معنى أن يحترم المرء نفسه، فتحولوا إلى تجار لا يهمهم شيء أكثر من الإعلانات التي ترعى برامجهم، حتى وإن تسببوا في سبيل ذلك من إنشاء عداوة بين البعض، أو اللهو بأعراض البعض، أو الخروج عن الحق إلا الباطل لضمان استمرارية البرنامج.

.. بعد عن واقع لفنانين لم يرو في الواقع إلا شره، فعبروا عنه بكثافة تخيل للمتلقي أن الواقع يخلو من الخير، فعبروا في أعمالهم عن عشوائية المجتمعات العربية وانتشار البلطجة فيها، وتحول أبنائها إلى حيوانات

تسوقهم شهواتهم، فصدقنا نحن قبل العالم أننا بالفعل هكذا.

.. تطور عملية تعليمية، تهدف إلى جعل الطالب حاسوباً عليه تسجيل كل المعلومات ليفرغها آخر العام في سلة المهملات، ذاك التطور الذي تتصوره المنظومة في المناهج فقط غافلة أو قاصدة الغفلة عن التطور في الطريقة التعليمية والتطور في مؤسساتها حتى لا أجد نفسي في مقعدي وعلى قدمي زميل لي.

.. شباب يرون كل ما هو عربي سيء، كيف لي أن أرد عليهم وهم يرون أنفسهم سيئين متخلفين فهم عرب، ليس لي أن أقنع الحيوان أن يتخذ أسلوب الإنسان ما دمت لم أقنعه أنه إنسان أولاً.

.. إن هذا الحلم يبدو أنه مستحيل، ولكنه الأمل الذي يصارع الزمن ليحول المستحيل ممكناً، إنها القناعة التي ترينا هذا العدد القليل من المؤيدين كافياً، إنه الحق الذي له يوماً أن ينتصر.

(١٣)

.. خيركم من يبدأ بنفسه، لم ينتظر هؤلاء الشباب استجابة الآخرين لهم، ولكنهم بدأوا بأنفسهم، متخذ كل منهم حرفته وسيلة لزيادة قطر دائرة المؤيدين.

.. فعرض فيلماً لأول مرة بالفصحى ، و شارك فيه كبار الممثلين بالرغم من رفضهم للحملة ، إلا أن قصة الفيلم المثيرة أجبرتهم على الموافقة على تأدية الفيلم ، و قد نال هذا الفيلم إعجاباً كثيراً لقصته التي تحدثت عن محمد علي في القرن الحادي و العشرين ، مظهراً فيها الكاتب إرادة المصري التي قضت على الفساد المنزرع في

أراضي الوطن ، و زراعة أزهار التقدم عوضاً عنه ، و لم يتوقف النجاح على إرضاء الجماهير فنال الفيلم جوائز عديدة ، أهمها بالنسبة لهم ذلك الوصف الذي عبر به بعض النقاد " إن الفيلم صور ازدهاراً عصري في ثوب ازدهار لغوي لم يستخدمه المصممون منذ عقود " ، فكان هذا الوصف دليلاً على نجاح حملتهم .

.. وكذلك ظهر بعض الإعلاميون في ثوب عربي راقٍ، جاذبين بصدقهم ورقيهم الكثير من المشاهدين، وانهالت معهم الإعلانات.

.. وكذلك قام عالم الكيمياء بدوره، فلم تشهد محاضراته وأبحاثه إلا تعبير بلاغي نقي، فجذب بعلمه الكثير من الأجانب إلى تعلم العربية، ودفع العرب إلى العودة إلى أصول لغتهم، وجمع حوله كبار المترجمين ليترجموا أبحاثه.

.. وقد جاءت نتائج أعمالهم مبهرة، فاتسعت الدائرة كثيراً، وسار على دربهم الكثير، فظهرت أهم الكتب العلمية بالعربية، وسابقت الأفلام العربية في شتى دور

العرض بأنحاء العالم، ووجد إعلاماً يمكننا أن نترك أبناءنا يشاهدونه.

.. ولقد جاءت النتيجة على غير توقعهم، فقد انعكس هذا الرقي اللغوي على المجتمع، وتلي الازدهار اللغوي ازدهار فكري، والفكر سبب كل تقدم.

.. تحقق حلم المغترب ولكنه تعلم أن الأحلام لا تنتهي، فأنا الآن على فراش الموت، ترقص الكلمات على اهتزاز يدي، وتتوقف من حين لآخر منتظرة دخول النفس، ومع ذلك فإن عقلي الذي لم يعد قادراً على أداء وظيفته مليء بالأحلام، ولو أنني سأحي بعد تلك اللحظة فلن أضيع لحظة دون محاولة تحقيقها.

.. هنا يتوقف القلم، ويعم الصمت حتى يقطعه صراخ فتاة تنهمر الدموع من عينيها، لقد مات وهو غارق في أحلامه التي كان أهمها بالنسبة إليه هو إيجاد صديق، ولكنه مات قبل أن يعرف أنه حقق أيضاً ذلك الحلم، فقد صاحب الوحدة، وكانت له صديقاً وفياً لم يتركه أبداً في حين تركه كل من حوله.

كلمة للمؤلف

.. قارئي العزيز كم يسعدني أن تتواصل معي، وأن تطلعني على رأيك ومقترحاتك.

للتواصل معي:

- → Facebook.com/AhmdAlmohamady
- → Twitter.com/AhmdAlmohamady
- → Ask.fm/Ahmed_Elmohamady
- → AhmdAlmohamady@gmail.com

